العلاقات التجارية

بين البحرين والعراق خلال

خارطة تاريخية سياسية

المتتبع لتاريخ العلاقات التجارية والاقتصادية بين البحرين والعراق ، ولتاريخ النشاطات التجارية فى الخليج العربى . [سانيوس ارابيكوس] كما اطلق عليه سترابون بين ٥٨ ق.م – ٢٣ ق.م] ، سيجد أنها علاقات ونشاطات تعود الى فترات تاريخية قديمة جدا . وذلك ، وهو أمر هام جدا ، لأن هذين البلدين لم يكونا من البلدان المنقطعة حضاريا فان لكل منهما تاريخا قديما وحضارة قديمة ومكانة تجارية واقتصادية قديمة أيضا . فقد حبا الله تعالى العـراق بنهـرين عـظيمـين (دجلة والفرات) كـانت مـراكـزه الحضارية وحواضره السياسية كبابل وسبار وغيرهما تتصل عن طريقهما وعن طريق الخليج العـربى ببلدان الخليـج من جهـة والعالم القديم من الجهة الثانية وقد لعبت المراكز الحضارية فى العراق دورين هامين لكونها منـاطق عبور للقـوافل التجـارية المحملة بالأخشاب والمعادن من فضة وذهب وقصـدير ونحـاس وأحجار كريمة فهى تقوم بوظيفة المصدر لها الى ارجاء مختلفة ، وفى الوقت ذاته فانها كانت مراكز انتـاجية لتصـدير القصـدير والانسجـة عامـة ، والأنسجة الصـوفية منهـا خاصـة ، وزيت السمسم .

العصر الوسيط

بقلم : الدكتور عبدالجبار ناجي - العراق

ومن الجـانب الثانى فـان البحرين هى الأخرى قد لعبت ، نـظرا لما تتمتـع به من موقع جغرافى واستراتيجى ، أدوارا فعالة فى هذه الحركة التجارية . اذ قد ورد ذكر دلمون أو تلمون على انها من بين المراكز الرئيسة الثلاثة فى الخليج العربى التى اسهمت كثيرا فى البناء الحضارى للمنـطقة ابـان فترات مختلفـة مثلا خـلال فترة حكم سـرجـون الأكدى وجوديا وخلال سلالة أور الثالثة ، وكذلك ابان فترة سنحاريب وأشور بانيبال الملكين الآشوريين . وكانت دلمون تعد سوقا عالمية للتجارة القديمة لانها اشتهرت بانتاج النحاس والأحجار الجيـدة واللؤلؤ والمواد الغذائية كالتمور . وقد جلب اليها العاج من افريقيا والخشب ، وكـانت تصدر البخـور بصـورة كثيرة الى بـابل . وهى أيضـا من المراكز الرئيسة لتصدير التمور والنحـاس والأحجـار الثمينة . وقـد وصف بلينـوس جزيرة تيلوس فى البحرين التى تبعد أميالا عن الساحل بأنها جزيرة مشهورة بمغاص اللؤلؤ . كما اشير الى أن الجرعاء أو الجرهاء كانت سوقـا تجاريـة كبيرة فقـد اشتهرت بذهبها ومعادنها - حتى أن اهاليها ، كمـا ذكر ، كانوا من أغنى الناس فى العالم بسبب سيادتهم على الحركة التجـارية والمـلاحية ونقل البضائع بين البلدان العربية والهندية فكـان البابليـون يستوردون منهـا البخور والتوابل(١).

ومما لا ريب فيه أن هذه المكانة التجارية والاقتصـاديـة الغنيـة القـديمـة لكـل من البحرين والعراق قدجعلتهماعرضة للمطامع الأجنبية . فالدول الأجنبية القديمة انذاك هى الأخرى كانت تخطط من أجل السيطرة والتـوسع والهيمنـة على المنـابع الرئيسـة

للتجارة العالمية وعلى طرق تجارة التوابل وتجارة البخور واللبان وطرق تجارة الحرير مدفوعة فى هذا بدافعين مركزيين فى السياسة الدولية العالمية أولهما : اقتصادى ويتمثل بما تشكله الموارد التى تنتجها هذه المنطقة ، فضلا عن الموارد التى تقوم بتصديرها ، من تكاليف باهظة على ميزانية تلك الدول ، وثانيهما استراتيجى يرجع الى أن طريق تجارة التوابل عبر الخليج العربى - نهر الفرات القديم أو على البر عبر البادية - الجزيرة - البحر المتوسط يعتبر طريقا استراتيجيا حيويا . لذلك قام اليونان والسلوقيون والرومان كما قام الاخمينيون والفرثيون والساسانيون بمحاولات عديدة لتنفيذ مخطط الهيمنة . وقد أفلحت بعض محاولاتهم فى فرض سيطرتهم والاستحواذ على منابع الثروة كما حدث ذلك باحتلال كورش بابل فى تشرين الأول سنة ٥٣٩ ق.م واحتلال الاسكندر الكبير بابل بعد أن أخذها من حاكمها الفارسى مازا سنة ٣٢٤ ق.م واحتلال سلوقس قائد الاسكندر بابل سنة ٣١٢ ق .م . أيضا فان الاسكندر الكبير ومن ثم سلوقس وبطليموس اهتموا بفرض هيمنتهم على الطريق البحرى المؤدى الى الهند - طريق التوابل - فأسس الأول منهم عدة مدن عسكرية بحرية ، وتولى نيرخوس صاحب الرحلة المشهورة قيادة اسطوله البحرى فى الخليج العربى فزار تيرين التي من المحتمل أن تكون دارين ، فرضة البحرين ، ووصفها بأنها كانت مدينة فينيقية . ومن الناحية الثانية فقد خضع العراق وسواحل الخليج العربى الى الغزو الساسانى اذ هاجم سابور الثانى (ذى الاكتاف) البحرين حوالى سنة ٣١٠ م وفتك بالقبائل العربية المقيمة هناك ردا على الهجمات التى قامت بها هذه القبائل على سواحل فارس واقام فيها حامية عسكرية .

كذلك فقد كان للفرس الساسانيين حامية عسكرية - مسلحة - فى الابلة جنوب العراق ، ووصلت اطماعهم الى اليمن .

ولم يذعن سكان العراق والبحرين العرب الى هذه المحاولات التوسعية الاجنبية انما قاوموها بشتى الطرق اذ فشلت سيطرة كورش والفرثيين والساسانيين على العراق والخليج العربى بفعل مقاومة أهل هذه المنطقة . كما فشلت حملات ومخططات الاسكندر والرومان فى السيطرة على الطريق المؤدى الى الهند . وكان للقبائل العربية فى البحرين دور كبير فى دحر الفرس فى معركة ذى قار وفى ارباكهم حربيا فى الابلة والمنطقة التى اتخذت فيها مدينة البصرة قبل فترة الفتوحات الاسلامية المنظمة . فكان للهجمات التى نفذها قطبة السدوسى وقبائل بنى شيبان فى البحرين ضد مسلحة الابلة العامل المباشر فى اثارة اهتمامات الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رض) فى توجيه الحملات العسكرية الى هذه المنطقة ودفع الفرس عنها . وفى الوقت نفسه فان سكان المراكز التجارية فى البحرين اتخذوا الصفة السلمية حفاظا على موقعهم الجغرافى التجارى فقد وصف سكان جرها مثلا المعروفون بسعة علاقاتهم التجارية مع الهند والعراق وبلاد فارس والعربية الجنوبية بأنهم دافعوا كثيرا من أجل المحافظة على أمن المنطقة وسلامتها حتى انهم سألوا انطوخيوس الثالث حوالى سنة ٢٠٠ ق .م الصلح والمهادنة حينما حاول هذا الاستيلاء على مدينتهم (٢) .

× × ×

وبطبيعة الحال فان هذه التطورات السياسية المتغيرة قد كان لها تأثير ايجابى وسلبى فى آن واحد على العلاقات التجارية والنشاطات التجارية فى منطقة الخليج العربى عموما . فالتوترات التى برزت على

الميدان السياسى والعسكرى بين الفرس واليونان فى بلاد الشام والجزيرة الفراتية والتى امتدت فشملت الحيرة وجنوب العراق ادت الى اضطراب الطرق التجارية فى هذه المنطقة . والمعروف أن طريق الهند ـ الخليج العربى ـ البحرين (بحرا) ثم الطريق البرى عبر بادية البصرة ـ الحيرة ـ تدمر ـ موانىء البحر المتوسط يعد طريقا قصيرا فى التجارة قياسا بالطريقين البحريين ١ ـ عبر عمان ـ البحر العربى ـ اليمن ـ البحر الأحمر ـ ابلة (بحرا) ثم الطريق البرى عبر البتراء ـ البحر المتوسط . ٢ ـ البحر العربى ـ اليمن (بحرا) ثم برا عبر اليمن ـ مكة البتراء ـ البحر المتوسط . غير أن هذا الطريق (أى طريق البحرين) كان هو الآخر يتأثر فى العوامل السياسية السائدة فى منطقة الصراع الفارسى اليونانى الرومانى . وعلى أية حال فان هناك دلائل عديدة تشير الى الصلات التجارية القوية بين التجار الحيريين والتدمريين مع البحرين . وان جرها لعبت دورا هاما فى نقل التجارات الى مكة والمدينة والبتراء . كما كانت الابلة ، خلال هذه الفترة ، سوقا مهمة للحصول على اللؤلؤ من البحرين ومنطقة الخليج العربى ، كما كانت تأتيها التمور والعطور من البحرين ويأتيها الارجوانى ، وهو حرير مصبوغ باللون الارجوانى ، من فينيقية وكانت تصلها السفن المحملة بالتوابل وخشب الصندل والنحاس من الهند بعد مرورها بالخليج العربى ، البحرين . وهناك صلات تجارية بين كرخ ميسان والبحرين اذ كان تجار ميسان يصدرون بضائعهم كالانسجة الحريرية المستوردة من موانىء البحر المتوسط وفينيقية والخمور الى الخليج العربى ، وكان للخمر اليونانى المعروف باسم اليافانى الذى يقوم بنقله تجار ميسان شهرة اذ كانوا ينقلونه الى الخليج العربى والهند [٣] .

أيضا فان سوق هجر كان من بين الأسواق العربية المشهورة وقد كان يعقد فى شهر ربيع الآخر من كل سنة حيث يردها التجار من مختلف البلدان العربية [٤] .

× × ×

كان من بين النتائج التى جاءت بها الفتوحات الاسلامية الوحدة الاجتماعية وتماسك القبائل العربية بعد أن اتخذت الحواضر والامصار التى أسسها العرب . فقد كانت البحرين فى بداية الأمر هى القاعدة التى انطلقت منها الحملات الأولى ضد الفرس فى مسلحة الابلة ، كما مر ذكره ، وكان لقبائلها الدور الهام فى هذا الميدان اذ ناصروا القائد خالد بن الوليد سنة ١٢ - هـ/٦٣٣م. اثناء مروره بالخريبة . ولعبت قبيلة بكر بن وائل دورا أساسيا فى التمهيد عمليا لحركة الفتوحات واستمر هذا الدور العسكرى للبحرين الى الفترة التى اتخذت فيها البصرة كمصر للفاتحين العرب والى الفترة التى تعين فيها والٍ عليها من قبل الخليفة ، فأخذت البصرة حينذاك تحل محل البحرين فى توجيه الجيوش المقاتلة فى الجبهة الجنوبية فى بلاد فارس وامدادها . فأعقب هذا التحول العسكرى تحول اجتماعي اذ انتقلت بعض القبائل العربية أو بطونها من البحرين الى البصرة وصار لها خطط خاصة بها من امثال بني بكر بن وائل وبني عبد القيس والأزد وبكر بن وائل .

أهمية الموقع الجغرافى والاستراتيجى للبلدين

لقد حدد الجغرافيون واللغويون العرب العراق بقولهم ان العراق عراق لأنه دنا من البحر ، فى حين نسبه المتخصصون فى

الاشوريات بأن الكلمة من أورك URAK أو أنوك UNUG أى المستوطن . وانه خلال الفترة الاسلامية يشمل المنطقة الواقعة من حدود تكريت شمالا الى عبادان على رأس الخليج العربى جنوبا ومن حدود القادسية غربا الى حلوان شرقا . وجعلوا الموصل ضمن منطقة الجزيرة الفراتية وضمن ديار ربيعة ومضر . ومن حواضر العراق الرئيسة بغداد والبصرة والكوفة وواسط وسامراء والنهروان وحلوان وعكبرا والبردان . وان كل مدينة من هذه المدن كان يتبعها عدد آخر من المدن الصغيرة والقرى . وكان لموقع العراق الجغرافى والاستراتيجى الدور الهام منذ الفترات القديمة اذ يمثل حلقة وصل تقع على الطرق التجارية المشهورة البحرية والبرية أى طريق تجارة التوابل وطريق الحرير ، وهما الطريقان الرئيسان فى عالم التجارة العالمية انذاك . وقد لعبت بعض حواجز الطرق دورا كبيرا فى هذا المجال الاستراتيجى التجارى . فوصفت الابلة على أنها مدينة قديمة عامرة تقع على نهر شط العرب (الذى كان يدعى فى الفترة الاسلامية بنهر دجلة العوراء أو دجلة البصرة) ، ووصفها الجغرافيون العرب على انها تمثل أرض الهند أو ثغر الهند وذلك لاتصالها الجغرافى الوثيق عبر شط العرب - الخليج العربى والهند . وبالفعل فقد كان تأسيس مدينة البصرة كمعسكر أو كمصر للعرب الفاتحين تأثير كبير على مكانة الابلة لكنها لم تقض عليها نهائيا ، اذ ظلت الابلة تمثل دور المرفأ والميناء الذى تمر به السفن والقوارب . ومما يجدر ذكره بأن نهر الابلة الذى يصل شط العرب بالبصرة القديمة (وطوله حوالى أربعة فراسخ اسلامية - اثنا عشر ميلا) لم يكن مؤهلا لدخول السفن الكبيرة ، ويبدو من خلال أوصاف بعض الرحالة المسلمين كالمسعودى وناصرى خسرو وابن بطوطة بأن الحمولات والتجارات كانت تنقل من البصرة فى قوارب الى الابلة حيث تنقلها من هناك السفن الكبيرة أو السفن الصينية عبر شط العرب الى الخليج العربى - سيراف ثم الهند والصين . وان الابلة ، بعد أن أفل نجم البصرة تجاريا واقتصاديا حوالى القرن الثالث عشر للميلاد ، اخذت تحل محلها فى هذا الميدان التجارى (٥) .

كذلك فان لبادية البصرة وبادية الكوفة مكانة استراتيجية جغرافية متميزة لمرور القوافل البرية المحملة بالتجارات وقوافل الحجيج ، الطريق الرئيسى بغداد - الكوفة - مكة . وطريق المشرق - البصرة - مكة . وتتمثل أهمية هذين الطريقين فى عالم التجارة اذ كان التجار يستغلون فترات الحج لنقل بضائعهم مع قوافل الحجيج طلبا للأمان من هجمات القبائل البدوية .

أما بغداد فان أهميتها الاستراتيجية والجغرافية تتضح من خلال ما أورده الجغرافى المقدسي حول تأسيسها بأنها تقع بين اربعة طساسيج (مناطق زراعية) طسوجان فى الجانب الغربى وطسوجان فى الجانب الشرقى . فاللذان فى الغربى قطربل وبادورابا واللذان فى الشرقى نهر بوق وكلواذا . فانت تكون بين نخل وقرب الماء ... «وانت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من المغرب وفى الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان وتجيئك الميرة فى السفن من الصين والهند والبصرة وواسط فى دجلة . وتجيئك الميرة من ارمينية وما اتصل بها في الزاب. وتجيئك الميرة من الروم ، وآمد ، والجزيرة والموصل فى دجلة ... وانت بين أنهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة(٦) » .

أما البحرين فمن المعروف تاريخيا ان الجغرافيين المسلمين قد وصفوها ضمن

تطرقهم لبلاد العرب ، وحددوها تحديدا جغرافيا ، خلال العهود الاسلامية ، أوسع بكثير مما هي عليه فى الوقت الحاضر ، انطلاقا من تعبير « بلاد » جغرافيا . فقد وصفوها بأنها اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربى تمتد من حدود البصرة شمالا الى حدود عمان جنوبا . وهناك من يقول بأن البحرين هى قصبة هجر ، فى حين أن المتعارف عليه بأن هجر كانت هى قصبة البحرين (٧) . وكانت البحرين تضم عددا من المدن والحواضر الرئيسة وعددا من القرى . فمن بين مدنها القطيف والعقير والسيف وأوال والسقار والفطح والاحساء وبيرين والآره والفروق وبينونة والمشقر والزاره وجواثا وسابور (وفى قول آخر سابون) والخط ودارين والغابة وهجر الصفا والشنون . ويدخل البكرى فى معجمه قطر ضمن اصطلاح بلاد البحرين ، ايضا فان هناك مدنا أخرى منها عدولى التى ينسب اليها السفن العدولية وحوارين . ويذكر ابن الفقيه الهمدانى مدنا أخرى فى قائمته المفصلة الدقيقة منها قصبة هجر الصفا والشيعان . كما عدد قرى البحرين بأنها : الحوس والكثيب الأصغر والكثيب الأكبر وأرض نوح وذو النار والمالحة والذرائب والخرصان والسهلة والحوجر والوجير والمنسلخ والشط ، ويعلق على هذه القائمة بأن هذه هى قرى بنى محارب ، أما قرى عامر بن الحارث بن انمار بن عمرو فهى اضعاف(٨) ذلك .

لقد وصف الجغرافيون والرحالة بعض حواضر بلاد البحرين الرئيسة بأنها تتميز بموقع جغرافى استراتيجى هام فى عالم التجارة ، فذكروا أن دارين هى فرضة البحرين حيث يجلب اليها المسك من الهند . ويعلق ياقوت الحموى فى معجمه على موقع دارين هذه بقوله انها صفة جزيرة أوال قائلا « ولعل اسمها أوال ودارين »(٩) ومما يذكر عن جزيرة أوال ، البحرين ، بأنها جزيرة فى البحر على مسيرة يوم عن القطيف وانها تتميز بوجود مغاص للؤلؤ(١٠) . وجاء فى وصف القطيف بأن لها خورا فى البحر تدخل اليه المراكب الكبيرة الموسقة ، وبأنها تقع على شط البحر ، وبها مغاص للؤلؤ أيضا ـ فضلا عن انها تقع على الطريق البرى الذى يربط البحرين بالعراق .

واقع العلاقات التجارية بين العراق والبحرين

دون شك فان الكتابة عن العلاقات التجارية بين العراق والبحرين خلال العهود الاسلامية موضوع شائك وفى كثير من الأحيان نظرى لانعدام المعلومات الاحصائية الواقعية الضرورية لمثل هذا الموضوع والتى تسهل الطريق أمام الباحث للتغلب على الثغرات الكثيرة . وتزداد صعوبة البحث بصورة أكثر حينما يحاول الاجابة على العديد من الاستفسارات المتعلقة بميدان التجارة والاقتصاد اذ ليس هناك من حاول من الجغرافيين والرحالة المسلمين ان يقدم لنا معلومات شافية ومباشرة ، حتى قائمة الصادرات والواردات التى ذكرها الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ/٨٦٨) فى الكتاب المنسوب اليه « التبصر بالتجارة » لا يمكن أن تكون مقياسا عاما ، فضلا عن كونها قائمة تحتوى على مجرد اسماء لبضائع وردت الى العراق وبضائع أخرى صدرت منه الى البلدان . وفوق هذا فان الكتاب والجغرافيين العرب ، عدا المقدسى فى كتابه احسن التقاسيم الى درجة معينة ، لم يهتموا بموضوع تقدير أهمية التجارة وما يحمل من الأقاليم ودور التجارة فى حياة وبقاء البلد اقتصاديا وفيما

اذا كانت تمثل فقرة فى موارد البلد وتطويره وانعاشه . والمقدسى يخصص جزءا من حديثه عن كل اقليم يتناول فيه حمل هذا الاقليم أو ذاك فيشير الى انتاجاته وصادراته غير أنها لم تكن قائمة متكاملة . ومع كل هذا فاننا سنحاول تشخيص أهم معالم هذا الموضوع .

ارتبط واقع العلاقات التجارية بين البلدين ارتباطا قويا بواقع الملاحة والتجارة فى الخليج العربى سواء كان ذلك بين بلدان المنطقة ذاتها أم بينها وبين العالم الخارجي . وهى مسألة سبق أن عالجها العديد من الباحثين المحدثين العرب والأجانب ، وقد اظهروا من خلال كتاباتهم قدم الدور الذى مثله هذا الممر البحرى فى المواصلات التجارية ونقل التجارات من معادن ثمينة وأخشاب وتوابل ونحاس وغير ذلك . وفيما يتعلق الأمر بموضوع البحث فان النشاطات والفعاليات التجارية فى الخليج العربى قد مرت منذ الفترات القديمة فى التاريخ بفترات من النشاط والانتعاش وأخرى من الركود والضعف . وهو أمر يرتبط بعوامل الاستقرار السياسى للمنطقة أو اضطرابها . لاسيما الأوضاع السياسية السائدة بين القوتين العظميين الشرقية الفارسية والغربية اليونانية والرومانية فتحدثنا المعلومات عن تلك الفترات بأن النزاع والتوتر الحادث بين الفرس واليونان مثلا يؤدى الى عرقلة واضطراب طريق الملاحة الخليجية (طريق التوابل) اذ تضطر السفن الى تحويل اتجاهها صوب اليمن والبحر الأحمر . ومن الجانب الآخر فان الفعاليات التجارية تأخذ بالنشاط عندما يسود الأمن والسلام بين هاتين القوتين أو حينما تسود احداهما على الأخرى .

وقد ظل هذا العامل السياسى يمثل العامل المركزى فى ازدهار تجارة الخليج العربى أو ضعفها ابان العهود الاسلامية غير أنه من المؤسف عدم وجود معلومات جغرافية واقتصادية عن واقع الملاحة والتجارة فى الخليج العربى خلال الفترات الاسلامية المبكرة اعنى : الخلافة الراشدة والدولة الأموية . وهو أمر لا يمكن أن نعزوه تماما الى قلة اهتمام الدولة العربية الاسلامية فى ميدان التجارة وانصرافها نحو الامور الزراعية كمورد ثابت حيوى لها اضافة الى الموارد المالية الأخرى المعروفة لكن ربما يرجع الى درجة كبيرة الى قلة من التفت للكتابة عن هذه الجوانب ، والى بدايات تحول المجتمع العربى الى مجتمع حواجز ومدن . اذ قد انصرفت اقلام المؤرخين والكتاب المسلمين الأوائل الى مواضيع عدة تعد هى المواضيع الأم بحدود تلك الفترات ومنها :

١ ـ الاهتمام بالكتابة عن سيرة الرسول الكريم (ص) ومغازيه وعن الخلفاء الراشدين والصحابة .

٢ ـ الاهتمام بتراجم الرجال والطبقات والأنساب .

٣ ـ الاهتمام بالكتابة عن الفتوحات الاسلامية فى المشرق والمغرب .

٤ ـ الاهتمام بالكتابة عن الشئون الادارية والزراعية ـ اى ادارة الاقاليم المفتوحة .

غير أنه ظهرت عدة تطورات هامة عندما تثبتت أركان الدولة العربية الاسلامية وعندما استقر العرب بعد استقرار الفتوحات الاسلامية ، وحينما تحول العباسيون بعد انتصارهم على الأمويين الى العراق واتخاذهم بغداد كرسيا لهم وعاصمة لدولتهم . وهذه التطورات والمتغيرات لم تكن مقصورة على الجوانب السياسية فحسب بل انها كانت اجتماعية اقتصادية بدرجة كبيرة . حينئذ اتسع مجال الكتابة عن

مواضيع اجتماعية اقتصادية كالمسالك والممالك ، وكتب البلدان والأمصار ، وكتب التجارة ومحاسنها وكتب الرحلات التجارية ، وهى تحولات ترجع أيضا الى جملة عوامل منها :

١ - الاستقرار السياسى الذى شهدته المنطقة بعد تأسيس الدولة وامتدادها الى الشرق والغرب حتى أصبحت امبراطورية مترامية الأطراف تهافتت امامها الامبراطورية الساسانية وانسحب أمامها البيزنطيون فى الغرب من المناطق التى سبق أن استحوذوا عليها .

٢ - تنامى القدرات الاقتصادية للفرد، وانخراطه بعد استقرار عملية الفتوحات فى مزاولة المهن والحرف والتجارة فبرزت أهمية المدن والمراكز وتركزت اختصاصاتها ، فصارت هناك بعض المراكز تحمل صفة الصناعة والأخرى التجارة والثالثة الثقافة ... الخ . كذلك فقد تزايدت حاجات المجتمع الاسلامى عموما فازدات أهمية التجارة لتوفير مستلزمات هذه الاحتياجات الزراعية والصناعية من أجل البناء والتنمية .

٣ - الانتعاش التجارى العالمى المتمثل باتساع الطلب على السلع والبضائع الشرقية الآتية من الصين والهند ، واتساع طلب الدولة الاسلامية الى السلع الآتية من الغرب ، فقد كانت الدولة بحاجة الى المعادن كالذهب والفضة والحديد والمعادن الأخرى وصارت بحاجة الى الرقيق من افريقيا والغرب والى الحرير والفواكه والأخشاب والتوابل من الشرق .

وهنا لا مندوحة من الاشارة الى ظهور مجاميع مشهورة من التجار أو العوائل التجارية كالتجار اليهود وتجار الراذانية أو الراهذانية وتجار الرقيق وتجار البصرة اذ يقول ابن الفقيه الهمذانى «وقالوا ابعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخميرى» [١١] والتجار البحرانيون والعمانيون والسيرافيون والتجار الكرامية ، وكان هؤلاء التجار يجوبون العالم طمعا للتجارة والكسب .

وكان من بين نتائج هذه المتغيرات البارزة فى ميدان التجارة والاقتصاد ان استعادت بعض المراكز التجارية فى منطقة الخليج العربى دورها المركزى فى نقل التجارات وتصديرها وفى الافادة من مواقعها الاستراتيجية فى فرض الضرائب والمكوس على البضائع المحملة المارة بها . فاستعادت الابلة دورها السابق القديم ، وبرز دور البصرة فى التجارة حتى انها اخذت تعرف بين الأمصار الاسلامية بمدينة التجارة [١٢] . وارتفع نجم جزيرة أوال ثانية كذلك استعادت القطيف وهجر فى بلاد البحرين مراكزهما السابقة واستعادت صحار ودبا فى عمان وسيراف فى الجانب الشرقى من الخليج العربى أهميتها ..

كذلك فان من نتائج هذه المتغيرات تركز اهتمام الكتاب والجغرافيين للكتابة عن مواضيع متخصصة مختلفة فظهرت خلال هذه الفترة معلومات تتعلق بالطرق والمسالك التجارية بين البلدان الاسلامية . ففيما يتعلق الأمر بموضوع البحث تحدث الجغرافيون عن الطرق البرية والبحرية التى تربط العراق بالبحرين ومن ثم بالخليج العربى والهند والصين .

يرتبط العراق ، من خلال البصرة ، بأقطار الخليج العربى من جهة والهند والصين وافريقيا من الجهة الثانية عن طريقين أولهما طريق برى والأخر بحرى . ومن الواضح أن الطرق البرية اذا ما قورنت بالطرق البحرية تعد طرقا اسهل وأكثر ربحا للتاجر ، بالنسبة الى حجم الحمولة ، لاسيما اذا توفر عدد من الظروف والمستلزمات ومن

أهمها : الاستقرار السياسي وقوة السلطة المركزية في ضبط الأمن وقطع دابر قطاع الطرق واللصوص ، فضلا عن توفير مواد المياه الضرورية جدا عن طريق اتخاذ السواقي أو خزانات مياه وعيون وآبار . وتظهر هذه الحاجة الى المياه بالنسبة الى القوافل التي اعتادت قطع الفياف بالاتجاه نحو البحرين وعمان واليمن ومكة وبلاد الشام . ومن الجدير ذكره فان صلاحية أي طريق بري أو عدم صلاحيته تتركز ، وفقا لمنظور الجغرافيين والرحالة المسلمين ، على سلامته وسيادة الأمن فيه وتوفر مياه الشرب أو بعكس ذلك فان عدم صلاحيته تتركز على خطورته وندرة الموارد المائية . فيحدثنا الاصطخري وابن حوقل مثلا عن الطريق الذي يربط البصرة بالبحرين بقولهما : ان هناك طريقا على الجادة تبلغ مسافته احدى عشرة مرحلة غير أنه طريق « لا ماء فيه » (١٣) . ويقولان عنه في مجال اخر بأنه طريق « غير مسلوك كان الى هذه الغاية وهو قفر » (١٤) . في حين يوجد طريق بري آخر يسير بمحاذاة الساحل وتصل مسافته الى ثماني عشرة مرحلة (أي أنه اطول من ذلك الطريق) لكن هذين الجغرافيين يصفانه بأنه طريق يمر « في قبائل العرب ومياههم وهو طريق عامر غير أنه مخوف » (١٥) . لذلك فان هذين التعبيرين يوضحان الأهمية في توفير المستلزمات التي تجعل من هذا الطريق أو ذاك مسلوكا وآهلا .

يبدأ الطريق البري الأول المهجور من البصرة الى عبادان وبعدها يتجه في البادية نحو البحرين . وهو طريق غير فعال تجاريا فلم يهتم الجغرافيون بوصفه ، وفي رواية لابن حوقل ان سليمان بن الحسن قد سار هذا الطريق الى البصرة غير أنه تزود بما يحتاج اليه من الماء من (١٦) البحرين .

ويبدو أن الطريق البري الساحلي الآخر كان عموما هو الطريق المفضل اذ يشير اليه الجغرافيون بأنه جيد ، ويستغرق قطعه حوالي خمسة عشر يوما على الابل . أما المحطات التي يمر بها فهي البصرة ـ عبادان ـ الخط ـ القطيف ـ الآره ـ هجر ـ البينونة ـ الزارة ـ جواثا ـ السابور ـ دارين ـ الغابة ـ قصبة هجر الصفا ـ المشقر ـ الشيعان ـ المسجد الجامع .

وعلاوة على تلك الطرق البرية هناك طريق بحري له أهمية كبيرة تفوق أهمية الطرق البرية ، على الرغم من وجود بضعة مخاطر في وجه السفن التجارية الخارجة من البصرة والآتية اليها عبر الخليج العربي . وتتمثل هذه المخاطر بالمنعطفات الضيقة والهوارات وكثرة اللصوص . وقد تحدث عدد من الجغرافيين والكتاب عن هذه الظواهر وكيفية التغلب عليها من قبل المسئولين وأصحاب الشأن وذلك من أجل تسهيل عملية مرور السفن التجارية ، اذ يذكر الاصطخري خلال حديثه عن المزايا التي يتميز بها الخليج العربي قائلا « وفي هذا البحر هوارات كثيرة ومعاطف صعبة أشدها ما بين جنابة والبصرة ، فانه مكان يسمى هور جنابة . وهو مكان مخوف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر » (١٧) لذلك أجريت الحلول الآتية للتغلب على ذلك وتلافي الاخطار : فقد تم انشاء برج أو فنار من الخشب اطلق الجغرافيون عليه اسم الخشبات ويقع على بعد ستة أميال من عبادان . والخشبات عبارة عن « أربع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناطور يوقد بالليل ليهتدي به ويعلم به المدخل الى الدجلة »(١٨) وقد شاهد الرحالة ناصري خسرو هذا الفنار في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد اثناء خروجه من شط العرب متوجها الى الخليج العربي

ووصفه بأنه « يتكون من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجنيق . وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ويرتفع على سطح البحر أربعين ذراعا ... وعلى قمته حجارة قرميد مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ، ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس » (١٩) ويستطرد قائلا ان هؤلاء الحراس كانوا يشعلون أثناء الليل سراجا في زجاجة كي لا تطفئه الرياح، ولكي يراه الملاحون من مسافة بعيدة فيحتاطون من خطر الارتطام بالأرض ، فضلا عن فائدته الأخرى المتمثلة بارشاد الملاحين الى الاتجاه الصحيح ويرون لصوص البحر ، القراصنة ، فيتمكنون من تحويل اتجاه سير السفينة اتقاء لخطرهم .

وصف الجغرافيون والرحالة سير الطريق البحرى من العراق الى البحرين على الشكل الآتى : تأتى السفن من الموصل وبغداد والكوفة وواسط عبر بطائح واسط الى دجلة العوراء (شط العرب) ومن ثم باتجاه البصرة عبر نهر المعقل ثم الى كلأ البصرة ومن البصرة تنقل القوارب وسفن التمور والتجارات باتجاه الابلة عبر نهر الابلة - ويبدو أن الحمولات الثقيلة التى تكون وجهتها الهند والصين تنقل الى سفن كبيرة فى الابلة فتخترق نهر شط العرب جنوبا باتجاه الخليج العربى - الى عبادان ، وقد قدرت المسافة بين البصرة وعبادان باثنى عشر فرسخا (أى ما يعادل ستة وثلاثين ميلا - ومن عبادان الى موضع الخشبات) (وطوله ستة أميال أى فرسخين) - ثم تدخل السفن الكبيرة والصينية والسفن الأخرى الخليج العربى باتجاه جزيرة أوال (البحرين) . علما بأنه من المحتمل أن يكون هناك طريق آخر مباشر من عبادان الى سيراف ثم الى الهند والصين .

وفى الوقت الذى كان فيه الطريق البرى الذى يربط العراق بالبحرين نشطا فى نقل البضائع وفى المواصلات عبر طريق العراق (البصرة) - البحرين - عمان ، لكن الطريق البحرى كان أكثر نشاطا وفاعلية سواء كان فى النقل الداخلى والمواصلات أم فى نقل البضائع والتجارات الى العالم الخارجى (الهند والصين وافريقيا) وبالعكس . من هذا المنطلق فقد وردت الينا معلومات مفصلة الى درجة كبيرة عن هذا الطريق مرحلة مرحلة من قبل الرحالة والجغرافيين المسلمين . فقد بينوا المراكز التجارية المشهورة التى يمر بها الطريق فضلا عن التجارات والبضائع التى تشتهر بها هذه المراكز وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والى درجة أقل السياسية علاوة على ذلك فقد اشاروا أيضا الى المواضع الخطرة فى هذا الطريق وصفات الخليج العربى وخليج عمان والمحيط الهندى ... الخ من المعلومات المفيدة جدا . فقد سار به ووصفه الرحالة المشهور سليمان التاجر فى رحلته التى ابتدأها من البصرة ، كما أن المسعودى فى كتابه مروج الذهب اشار الى الطريق اعتمادا على رواية سليمان التاجر اضافة الى المعلومات التى ادلى بها اليه التجار البحريون ، وسلكه أيضا التجار الراهذانية حيث كانوا يبدأون جولتهم العالمية فى بلاد الفرنج الى السند والهند والصين ، ووصف الطريق أيضا صاحب كتاب « فى الصين والترك والهند » ، كما تناول وصف مراكزه التجارية ونشاطه الرحالة الصينى تشان جوكوا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد . (٢٠)

انه لمفيد حقا ، ونحن بصدد العلاقات التجارية بين العراق والبحرين الاشارة الى التجار البحرينيين أو البحرانيين . اذ اعتمادا على ما أورده البيرونى فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر للميلاد

فان هناك تجارا مشهورين يطلق عليهم اسم تجار البحر [٢١] ، وهى تسمية عامة كما هو واضح تطلق على التجار المتخصصين فى هذا النوع من التجارة . غير أن هنالك اشارات أخرى تشير الى مجموعة من الاهالى كانوا يقطنون مدينة البصرة ويعرفون بالبحريين وكانوا ينزلون فى كلأ البصرة وهو المنطقة التجارية من المدينة التى تطل على شط البصرة (وهو شط يربط المعقل بالابلة) وتضم مجموعة اسواق تجارية [٢٢] . والظاهر أن مركز سكناهم الرئيسى دار الزبير (عبارة عن سوق واسعة تجارية) . وقد استنتج بعض المؤلفين المحدثين أن هؤلاء البحريين هم أصلا من اهالى البحرين وعمان [٢٣] .. وفى الواقع فان المسعودى وصف هؤلاء البحريين بأنهم كانوا على اطلاع واسع بأمور البحار وبالرحلات التجارية الى الهند [٢٤] . لكن اعتمادا على بعض النصوص التاريخية يتضح لنا بأن هذا الاصطلاح كان يطلق على أولئك الأهالى الذين سكنوا البصرة والذين ترجع اصولهم الى البحرين . فيذكر المسعودى احداث معركة وقعت سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠ بين أبى سعيد الجنابى القرمطى وقائد الجيش العباسى فوصف جيش الجنابى بأنه يتألف من قبيلة كلاب وعقيل والبحرانيين ، ومن الجانب الثانى فانه عدد عناصر جيش القائد العباسى فى البصرة قائلا بأنه يتكون من مطوعة البصرة وقبيلة حنبة والبحرانيين ، ويعلق على هذه التسمية بقوله ان المقصود بالبحرانيين أولئك الذين هاجروا من البحرين [٢٥] . ويذكر سيط بن الجوزى فى كتابه « مرآة الزمان » رواية تؤيد ما ذهب اليه المسعودى فى أن تسمية البحرانيين أو البحرينيين ترجع الى البحرين اذ اشار أن البحرينيين هددوا سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٦٩ القوافل (التجار والحجاج) الخارجة من البصرة والكوفة باتجاه [٢٦] مكة . المهم أن مهمة البحرانيين فى البصرة لم تقتصر على الجوانب السياسية العسكرية لكنها كانت أيضا تجارية اذ شاركوا فى الأعمال التجارية وكان بعضهم تجارا .

× × ×

انتاجات العراق والبحرين التجارية

كما أوضحنا سابقا أنه من الصعب تحديد اجابات احصائية دقيقة حول موضوع حجم التبادل التجارى بين البلدين ومدى استمرارية هذا التبادل خلال العصر الاسلامى الوسيط . لكنه مع ذلك بامكاننا تناول المسألة من زاوية الانتاجات الزراعية والصناعية القابلة للتصدير لكل بلد منهما لاسيما خلال هذه الفترة التى اصطلحنا عليها بفترة انتعاش الحركة التجارية فى الخليج العربى . ان الكتاب المهم الذى يعطى معلومات احصائية شافية عن البضائع التجارية هو (التبصر بالتجارة) المنسوب الى الجاحظ البصرى . أيضا هناك معلومات ثمينة نادرة فى عدد من كتب الجغرافيين من أمثال كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى .

كانت المنسوجات القطنية والكتانية الرفيعة والجميلة على رأس قائمة المنتجات العراقية المهيأة للتصدير الى خارج العراق ، وكان خز البصرة وبزها من بين هذه المنسوجات التى بلغت شهرتها الافاق الأمر الذى جعل المقدسى يقول « الم تسمع بخز البصرة وبزها »[٢٧] ومن بين هذه المنسوجات المشهورة الفوطة أو الريطة البصرية ، وعمائم الابلة وثيابها الكتانية الرفيعة ومناديلها . واشتهرت بغداد بمنسوجاتها الحريرية الجميلة الدقيقة الصنع والموشاة ، كما اشتهرت مدينة

الكوفة بأقمشتها الحريرية الفاخرة وبمناديل الخز (الكوفية) . واشتهرت كل من بغداد والبصرة والكوفة بصناعة العطور كالبنفسج والماورد فيذكر المقدسى أيضا عن هذا الموضوع « ومنها - أى البصرة - تحمل التمور الى الأطراف والحناء ولها خز وبنفسج وماورد »[٢٨] ، فهى حسبما أورده مشهورة بتصدير التمور التى بلغ عدد أنواعها وأصنافها أيام الخليفة العباسى المعتصم حوالى ثلثمائة وستين ضربا .[٢٩] ويبدو أنه كان هناك سفن خاصة لتصديره وحملة يطلق عليها سفن التمور أو زواريق التمور تغطى عادة بالبوارى[٣٠] ، كما يظهر أن وارد التمور كان يشكل مصدرا هاما فى حياة الدولة اقتصاديا ، فيذكر الصولى مثلا سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ بشأن خروج البريديين فى البصرة ومحاولة العباسيين التضييق عليهم بأن « مادة البريديين ضرائب التمر فتقدم بالنداء الا يحمل أحد من التجار مالا الى أسفل[٣١] .. وكان يصنع فى البصرة من التمر الدبس ويقول عنه ابن بطوطة أنه « عسل يسمى السيلان وهو طيب كأنه الجلاب[٣٢] » . كما اشتهرت البصرة بتصدير الاحذية كما يذكر مؤلف كتاب حدود العالم[٣٣] . واشتهرت المدن الأخرى فى العراق بانتاج وتصدير الفواكه والصابون والزيت[٣٤] .. الخ .

أما البحرين فانها اشتهرت منذ القديم بانتاج عدد من البضائع والمواد التى شغلت حيزا فى التصدير أهمها النحاس والأحجار الثمينة والأخشاب والتمور والقصدير والرصاص . علاوة على كونها كانت تحتل مركزا مهما فى الترانسيت ومرور تجارات الشرق كالثياب الحريرية والاستبراق والتوابل والفلفل والقرنفل والدارصينى والجوزبوا والزعفران والصدف والعاج والدر والمرجان واللبان والبخور والعطور والياقوت الأحمر والمسك والماس والبلور والعنبر والأخشاب وغير ذلك . فقد اتفق الجغرافيون المسلمون على أنه يكثر فى البحرين النخيل والفواكه كالرمان والاترج ، وكان يزرع بها القطن والحنطة والشعير[٣٦] . ويستخرج فيها اللؤلؤ ، وكان، كما يذكر ناصرى خسرو، لسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون[٣٧] . كما يصدر العنبر المستخرج من الخليج حتى ان سليمان التاجر يشير الى أن سمك العنبر يوجد عند العطارين فى بغداد والبصرة[٣٨] ، كما يشير صاحب كتاب « الانكار فى جواهر الاحجار » بأن الجواهر الجيدة النفيسة انما تستخرج من مواضع معينة منها سرنديب وكيش وعمان والبحرين ، ويعقب على ذلك قائلا بأن الجواهر المستخرجة من البحرين تعد من افخر اصناف الجواهر « وما يوجد منه فى غير هذه المواضع لا اعتبار[٣٩] به » . وكان يأتى من البحرين النحاس ومواضع انتاجه كثيرة فى برية العرب[٤٠] . وفيما يتعلق الأمر بنخيل البحرين فقد وصفت بكثرته حتى قيل أن نخيلها بقدر غوطة دمشق مستدير عليها[٤١] . وكان أهل الاحساء والقطيف يصدرون التمور الى الخرج وادى اليمامة ليشتروا بدله الحنطة[٤٢] . واشتهرت مدينة هجر بتمورها أكثر من أى بلد آخر فى الجزيرة فيقول ابن الفقيه الهمدانى « ريف الدنيا من التمر ما بين اليمن الى البصرة وهجر[٤٣] » . وامتدح ابن بطوطة تمر هجر بقوله انه لا يوجد له مثيل فى أى بلد آخر وكان الأهالى يعلفون دوابهم[٤٤] منه . وصار ، لكثرة التمر فى هجر ، مثلا شائعا « كمهدى أو كحامل التمر الى هجر » ، ويبدو أن أنواعا منه كانت تحمل الى البصرة[٤٥] أيضا . كما اشتهرت هجر بتجارة الخمور[٤٦] . واشتهرت باستخراج اللؤلؤ

اذ يقول المقدسى أنه كان يستخرج بحدود هجر حيث يغاص عليه بازاء جزيرة[٤٧] أوال . واشتهرت جزيرة أوال التى كانت قديما تعرف بترم لكثرة نخيلها وكثرة الموز والجوز والأترج والليمون والأشجار والزروع . فضلا عن شهرتها بانتاج الأحجار الكريمة واللؤلؤ بصورة خاصة . ويذكر المقدسى فى هذا الصدد أنه « يكترى رجال يغوصون فيخرجون صدف اللؤلؤ وسطها[٤٨] » ويصفها بأنها « معدن البحر » . واشتهرت دارين أودارون التى ، كما يقول ياقوت الحموى ، قد تكون أوال بأنها مرفأ سفن الهند ومشهورة بتصدير المسك والطيب حيث كان يأتيها من الهند وكانت مشهورة بمسكها حتى قال فى ذلك الشاعر الجعدى .

القى فيها فلجان من مسك دا
رين وفلج من فلفل ضرم

واشتهرت دارين أيضا بانتاج الخمور ، واشتهرت القطيف بالقطن والحناء والفواكه كالمانجى [٥٠] .

× × ×

بقى هناك أمر آخر هام لا بد من الوقوف عليه فى فترة انتعاش التجارة هذه الا وهو دور التجارة كمورد اقتصادى ثابت للدولة . ان نظرة عجلى الى موارد الدولة العربية الاسلامية خلال العهود المختلفة تكشف لنا بأن هناك مصادر ثابتة قائمة على عدد من الضرائب كالخراج والجزية والصدقات والمستغلات وواردات البلدان الخاضعة للدولة كواردات السواد والمشرق والمغرب ، كما أن هناك موارد غير ثابتة وهى الضرائب المفروضة على بعض الأعمال والانتاجات لا سيما عند احتياج الدولة الى الأموال . فقد فرضت الضرائب على المنسوجات والطواحين والمراعى والمروج والملح والارث والحيوانات . أيضا فقد استخدمت وسيلة لجمع الأموال ومساندة بيت المال منذ أيام الخليفة العباسى المقتدر بالله سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ فصاعدا وهى المصادرات . ان ذلك كله لايعنى ابدا بأن الدولة العباسية لم تلتفت الى التجارة والضرائب المفروضة على التجارات المصدرة والواردة على أنها مصدر بارز فى تموين بيت المال . وقد كانت هذه الضرائب تفرض من قبل الخليفة والأمراء على حد سواء . وصار فى الفترات المتأخرة من حق الضامنين ، كضامن البصرة أو ضامن واسط ، حق فرض الضرائب التى يراها على أهالى المدينة وعلى التجارات أيضا باعتباره يدفع ضمانا سنويا الى الدولة العباسية . وهناك دلائل تاريخية كثيرة تفيد بأن الدولة العباسية والضامنين فى حواضر العراق الرئيسة كانوا يعلقون أهمية على الموارد الآتية من التجار فى تنمية بيت مال الدولة وسد العجز فيه . فيحدثنا اليعقوبى فى تاريخه بأن هناك ضريبة العشر على التجارات الواردة فى بحر الصين . كما أن هناك مكوسا على التجارات الواردة من مكة والأهواز وبلاد فارس . وفى هذا الصدد لابد من الاشارة الى أن هناك اشارات تبين بأن ضرائب معينة كانت تفرض على الحجيج . كما أن هناك ضرائب على التجاوزات والبضائع التى تجتاز العراق فيحدثنا المقدسى عن هذه الضرائب بقوله « وأما الضرائب فثقيلة كثيرة محدثة فى النهر والبر . وفى البصرة تفتيش صعب وشوكات منكرة وكذلك فى البطائح حيث تقوم الأمتعة وتفتش[٥٢] . واذا عاد الحجاج فى مكة فانهم يدفعون المكس على أحمال الآدم والجمال العربية ، كما يؤخذ منهم على المحمل ستون درهما وعلى حمل البز مائة درهم[٥٣] . ويذكر الصابى أن المكوس كانت تؤخذ على ما يأتى العراق من بلاد فارس وسوق الاهواز وحصن مهدى ونهر

سدرة « وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز الى البحر ويرد منه وتؤخذ الضريبة المسرفة عليه(٥٤) » . وأخيرا فان ابن حوقل خلال حديثه عن البصرة يقول انها مشهورة جدا فى « التجارة والمتاع والمجالب والجهاز الى سائر اقطار الأرض » ثم يستطرد قائلا بأن ارتفاع المدينة خلال فترة زيارته « من وجوه أموالها كلها وجباياتها من اعشارها وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراتب فانه زاد وكثر وغلا وغزر » وقدر جبايتها عام ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ بأنه ستة الاف الف درهم(٥٥) ، وهو وارد ضخم بحدود تلك الفترة ويشكل موردا هاما .

اما البحرين فهى الأخرى كانت تتمتع بانماط اقتصادية متنوعة فهناك الزراعة ، كزراعة النخيل والفواكه والقطن والحبوب وغير ذلك ، وهى تدر موردا غنيا لتموين ميزانية الدولة . وكانت بعض حاصلاتها الزراعية مهيأة للتصدير سواء كان ذلك ضمن منطقة الخليج العربى كما هو الحال ببيع التمور الى الخرج فى اليمامة مقابل الحنطة الى البلدان الاخرى . وهناك الصناعة ، خاصة صناعة المنسوجات ، أما المورد الثالث الهام جدا فهو جمع اللؤلؤ والعنبر وما يستخرج من الخليج العربى ، ويبدو أن واردها غنى للدولة اذ يقول ناصرى خسرو أن لسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون من(٥٦) اللؤلؤ . ويذكر ابن حوقل عن جزيرة أوال معلومات قيمة اذ يقول فى الجزيرة « الضريبة العظيمة على المراكب المجتازة بهم » ويضيف ان وارد ذلك يرجع الى ابى سعيد الجنابى وولده سليمان(٥٧) وتسلمها مما يوضح أن التجارة والضرائب المفروضة على التجارات تعد نمطا اقتصاديا آخر مهما فى حياة البحرين الاقتصادية . ونعود الى ابن حوقل حيث يقدم لنا معلومات عن هذا المورد فيذكرها على انها ١ ـ العشور ٢ ـ المرافق الأخرى ٣ ـ الضرائب المفروضة على الطرق البرية الآتية من بادية البصرة وبادية الكوفة وطريق مكة ٤ ـ الضرائب المفروضة على ما يصل البحرين من عمان عن طريق البر والبحر ٥ ـ وارد حاصلات البحرين الزراعية كالتمور والفواكه والحنطة والشعير . فمن المعروف أن للقرامطة ديوانا على الطريق البرى الذى يربط البصرة والعراق بالبحرين وموضعه على باب (حدود) البصرة ويذكر أن هذا الديوان وكذلك الديوان الذى اسسه الديلم لا يفتح الا ساعة فى النهار ، وكانوا يأخذون ضريبة قدرها أربعة دراهم على كل رأس من الغنم(٥٨) . ويشير ابن حوقل الى أن قرامطة البحرين كانوا « يتوزعون من مال البصرة والكوفة وما يقبضونه من الحجاج(٥٩) » . ويذكر أيضا بأن هناك ضريبة على الحجاج الوافدين الى البحرين ، وضرائب على كل حمل من أحمال البز والخز الواردة من البصرة . وفى الوقت نفسه فقد كان لهم ديوان آخر فى جزيرة أوال التى تعترض طريق السفن التجارية الذاهبة الى البصرة والعراق والخارجة منه الى عمان وسيراف والهند والصين وافريقيا . وقد وصفت الضرائب التى يأخذونها فى مركز جمع الضرائب فى أوال على أنها عالية جدا(٦٠) ـ كل هذا وغيره يدل دلالة أكيدة على مدى أهمية التجارة ومواردها كمصدر اقتصادى فى حياة الدولة خلال العهود الاسلامية ، لذلك نجد بأن الدولة العباسية كانت تولى أهمية خاصة الى طرق الحاج والطرق التجارية بتوفير مستلزماتها . كذلك نجد أن قرامطة البحرين بعد أن استقر أمرهم خططوا كثيرا للاستحواذ على المراكز التجارية الهامة فى المنطقة كالبصرة

وسيراف انطلاقا من المزايا التجارية التى كانت تتمتع بها هذه المراكز .

غير أنه من المؤسف أن المصادر لا تقدم بالضبط مقدار الضرائب المفروضة على التجارات والبضائع الواردة والصادرة لكنه من المحتمل جدا أن نقف ولو مبدئيا على ذلك من خلال اللجوء الى معلومات ضرائبية من منطقة أخرى أو تخص بلدا آخر. فالبحرين كما ذكرنا تقع على طرق التجارة البحرية الآتية من الهند والصين وافريقيا الى العراق لذلك فانها خلال فترة انتعاش التجارة فى الخليج العربى كانت تمثل الممر الرئيسى للعديد من البضائع والتجارات كالاحجار الثمينة والعاج والأخشاب والتوابل والمعادن ، وكان التجار البصريون والسيرافيون والبحرانيون والعمانيون يتولون نقل هذه التجارات ، فمثلا اعتمادا على قول المقدسى ان الضرائب والمكوس المفروضة فى ميناء عدن والتى كان يعتمد عليها كثيرا هى :

نصف دينار على كل حمل حنطة ، ثلاثة دنانير على سفط ثياب الشطوى ديناران على سفط ثياب الديبقى ، ديناران على سلة الزعفران ، دينار على رأس الرقيق . ويذكر أن الزكاوية كانوا يقومون أمتعة التجار ويأخذون عشرها ثم يقدمون ثبتا بأموال التجار الى السلطان ، بعدها يقومون بتفتيش دقيق لما يحمله التجار من البضائع(٦١) .

أما بخصوص المراصد البرية فكانوا يأخذون على باب زبيد دينارا على حمل المسك ، ونصف دينار على حمل البز(٦٢)

ويقدم ابن المجاور في القرن السابع قائمة دقيقة مفصلة عن مقادير الضرائب المفروضة على التجارات ابان دولة بني زريع أرى من المفيد ايضا ذكرها لأنها قد تفيدنا فى موضوع البحث . كان يؤخذ على بهار الفلفل (البهار عيار يعادل حوالى ٣٠٠ رطل) ثمانية دنانير عشور ودينار شواني وديناران على خروجه على الفرضة . ويؤخذ على النيل اربعة دنانير شواني وربع دينار على خروجه على الفرضة ، وعلى بهار الحلتيت ثمانية دنانير ، وعلى بهار قشر المحلب ثلاثة دنانير ونصف ، وعلى بهار الطباشير واحد وعشرون دينارا الا ثلثا ، وعلى فراسلة الكافور خمسة وعشرون دينارا ونصف وسدس ، وعلى بهار الهيل سبعة دنانير .. وعلى فراسلة الزعفران ثلاثة دنانير وثلث ، وعلى بهار الكتان سبعة دنانير ونصف . واذا ابتاع مركب يؤخذ ضريبة من البائع قدرها ١٠٪ ، ويؤخذ على الحديد عشور النصف وعلى اللاك (وهو نبات يستخلص من عصارته صبغ أحمر تصبغ به جلود البقر والماعز) الربع أو الثلث ، كما يؤخذ عليه ديناران استظهارا . وعلى رأس الضأن ربع دينار وعلى الحصان خمسون اذا دخل البلد وسبعون دينارا اذا خرج في البحر الى الخارج ، وعلى رأس الرقيق ديناران ، وفى حالة تصديره فيؤخذ نصف دينار ، وعلى شقق الحرير من عمل زبيد نصف دينار ، وعلى الثوب الظفاري ربع دينار وعلى السوس ثلاثة قراريط ، وعلى فوطة السوس ربع وعلى كورجة الثياب الخام الهندي ديناران ونصف(٦٣) .

فالملاحظ ان هناك العديد من تلك المواد التى كانت تدخل البحرين او تمر بها الى العراق ، مع العلم أنه ينبغى ان نأخذ بنظر الاعتبار بأن هذه الضرائب متغيرة تبعا للتغيرات السياسية والاقتصادية والجغرافية ، فمثلا نجد ان المقدسي فى روايته السابقة يشير الى ان الضريبة على الثياب كانت بين دينارين الى ثلاثة دنانير وعلى سلة الزعفران دينارين وعلى حمل المسك دينارا ، وعلى حمل البز نصف دينار ،

فى حين ان صاحب صعدة لم يأخذ اى ضريبة واكتفى بأخذ ربع العشر من التجار . وكان الديلم والقرامطة يأخذون على باب البصرة ضريبة على رأس الضأن قدرها اربعة دراهم وهى فى اليمن ربع دينار ، وعلى حمل البز خمسين درهما بينما تختلف الضرائب على المنسوجات في اليمن تبعا لانواعها . وكان يؤخذ زمن المقدسى على رأس الرقيق دينار بينما هى فى رواية ابن المجاور فى القرن السابع ديناران(٦٤)

فترة انكماش النشاط التجاري :

لقد حدد بعض الكتاب الاجانب والعرب القرن الحادى عشر للميلاد بأنه القرن الذى يمثل فترة هامة فى تاريخ التجارة والملاحة فى الخليج العربى ، اذ اتضح فيه انتكاسها وضعفها وذلك لتحول الطرق التجارية والملاحية الآتية من الشرق الى بحر عمان - البحر العربى - البحر الاحمر بدلا من الخليج العربي . وهى فرضية ذكية تؤيدها العديد من القرائن التاريخية والجغرافية والاقتصادية لا مجال الى الخوض فيها لكن ابرزها :

١ - ضمور المراكز التجارية التى كانت تلعب دورا فعالا فى ميدان الملاحة والنقل والتجارة امثال البصرة والابلة واوال وسيراف وقيس .. وعلى عكس ذلك انتعاش موانىء اخرى امثال موانىء عمان كصحار وعدن وصعدة في اليمن وقلزم وعيذاب في البحر الاحمر .. فقد وصف ابن جبير الاخيرة بقوله : « انها من افضل مراسي الدنيا لان مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع»(٦٥)

٢ - ندرة المعلومات التجارية والاقتصادية فى كتب الرحلات والجغرافيين عن الفعاليات التجارية ، وقد يكون العكس بالنسبة الى كثرتها بخصوص الملاحة فى البحر الاحمر صحيحا كمعلومات ابن مجاور مثلا ووثائق الجنيز المهمة .

٣ - اهتمام الدولة الفاطمية فى مصر فى الحقل التجارى وطريق التجارة مع الهند (طريق التوابل) والصين وجذب الطرق عبر البحر الاحمر . ويتضح ذلك من خلال بعض الفقرات فى السجلات المستنصرية ، فضلا عن وثائق الجنيزا .

٤ - تحول العديد من تجار البصرة وبغداد الى مصر ، ونشاط التجار المصريين واتساع اتصالاتهم التجارية بوكلائهم في اليمن وعمان والهند .

ويرجع هذا الانكماش فى النشاط التجارى فى الخليج عموما وفى العلاقات التجارية بين العراق والبحرين خاصة الى جملة عوامل منها :

١ - اضطراب الاوضاع السياسية الناجمة عن سيطرة الديالمة والسلاجقة على مقاليد الامور في العراق وقلة اهتماماتهم بالميادين التجارية وانشغالهم الكبير فى الحروب فيما بينهم من اجل السلطة وتوجيههم العسكري ، مما ادى الى اهمال الطرق التجارية فضعف الأمن بها . كذلك فان البحرين هى الاخرى عاشت فترة اضطراب سياسي وحروب وفوضى ابان سيطرة القرامطة وما بعد ذلك .. والواقع ان هؤلاء كانوا يفرضون سيطرتهم على بادية البصرة والكوفة وكانوا يشكلون خطرا جسيما على القوافل التجارية البرية القادمة من العراق الى البحرين والى مكة حتى انه فى سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩ اعلنوا تهديدهم للقوافل التجارية والحجاج الخارجة من البصرة والكوفة الى مكة ومن خالف تهديدهم هذا « فلا ذمام(٦٦) له» وكثيرا ما اعترضوا قوافل الحجيج والمارة .

٢ ـ شجع هذا الاضطراب السياسي العديد من القبائل البدوية فى ان تفرض سيطرتها على الطرق وان تهدد المارة والحجاج والتجار فى آن واحد ، مثلما حدث فى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٩٨ وهجوم الاصيفر المنتفقي على الاحساء والقطيف ونهبه اموال الناس ، وتعرض بنو هلال على حجاج البصرة سنة ٣٦٣/ ٩٧٣ ونهبهم اموال الحجاج والتجار وكذلك ما احدثوه سنة ٣٩٢/ ١٠٠١ وسنة ٣٩٩/ ١٠٠٩ التى نهبوا فيها حوالى ألف ألف دينار(٦٧)

٣ ـ الضرائب الفادحة التى اوجدها الديالمة والسلاجقة والقرامطة على التجارات الواردة والصادرة .

٤ ـ المنافسة السياسية والاقتصادية بين الفاطميين فى مصر والعباسيين فى بغداد ، ومحاولة الفاطميين اجتذاب الطرق التجارية عبر البحر الاحمر .

الهوامش

(١) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١ ص٤٣٨-٤٤ ، نفس المؤلف : « علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب» مجلة سومر مجلد ٥ ج٢/١٩٤٩/ ص١٣٣-١٣٦ . فؤاد جميل : «الخليج العربي في مدونات المؤرخين والبلدانيين الاقدمين» مجلة سومر مجلد ٢٢/١٩٦٦ ص٥٢-٥٤ .
Leemans: Foreign Trade in Old Babylonian period (1960) p.2-5, 121.

(٢) فؤاد جميل : المصدر السابق ص٥٢ ، ٥٤ ، محمد امين واصف : «الجرعاء او الجرعة» في مجلة لغة العرب (ج٧/ السنة الرابعة) ص٤١٧-٤١٩ ، رزوق عيسى : «قبور غريبة قديمة في البحرين سابقة لعهد التاريخ» مجلة لغة العرب (ج٧/ السنة الثانية) ص٢٧٤، ٢٧٦ ، «جزيرة تيلوس وارادوس» في مجلة لغة العرب (ج٧/ السنة الرابعة) ص٤٢٠ .

Wilson: The Persian Gulf, p.30, 34, 156;
Bibby: Looking for Dilmun (1969) p.107

(٣) د. طه باقر : مقدمة ج١ ص٤٣٠-٤٤٠ ، د. سامي سعيد الاحمد : العراق القديم ، الجزء الثاني (من العصر الاكدي حتى نهاية سلالة بابل الاولى) بغداد ١٩٨٣ ، فؤاد جميل ص٥٢-٥٤
Seemans, p.2, Rostovizeff: The Social and Economic Hellenistic World, Vol. I p.134

(٤) كان المنذر بن ساوى هو الذي يتولى تعشير التجار ، كما ان هناك سوقا في المشقر حيث يرد اليه تجار فارس ، والمنذر بن ساوى من بني عبدالله بن دارم . انظر القلقشندي . صبح الاعشى ج١ ص٤١٠ ، ابن منظور : لسان العرب (مادة هجر) .

(٥) انظر عن الابلة ابن الفقيه الهمداني : البلدان ص ٢٧٠ ، الاصطخري المسالك والممالك ص٩٥ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٧٨ ، ٤١٩ ، ناصر خسرو : سفرنامة (تعقيب د. يحي الخشاب) ص٩٩ ، ابن بطوطة : رحلة (بيروت) ص١٨٨ .

(٦) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١١٩ - ١٢٠

(٧) الهمداني : صفة جزيرة العرب (تحقيق الاكوع) ص٢٧٩-٢٨٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان (مادة بحرين)

(٨) ابن الفقيه الهمداني ص ٣٠ - ٣١

(٩) ياقوت الحموي (البحرين)

(١٠) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٧١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان (اوال) ، ابو الفداء : تقويم البلدان ص٣٧١ .

(١١) ابن الفقيه الهمداني : المصدر السابق ص ٥١

(١٢) الجاحظ كما ذكره المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣٣ ، ابن حوقل : صورة الارض ج١ ص٢٣٨

(١٣) الاصطخري : الاقاليم ص ١٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ج١ ص٤١ .

(١٤) ابن حوقل : مسالك الممالك ص ٣٥

(١٥) الاصطخري : الاقاليم ص١٥-١٦ ، ابن حوقل : المسالك ص٣٥ .

(١٦) ابن حوقل : صورة الارض (بيروت) ص ٤٧

(١٧) الاصطخري : الاقاليم ص ١٦ ، ابن حوقل : المسالك ص٣٨ ، صورة الارض ق١ ص٤٧

(١٨) الاصطخري : الاقاليم ص ١٦ ، ابن حوقل : المسالك ص٣٨ ، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس) ج١ ص٢٣٥ ايضا .

Hasan, H: A History of Persian Navigation (London 1928) p.110

(١٩) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٥١

(٢٠) انظر عن هذا الموضوع ابن رستة : الاعلاق النفسية (ليدن ١٨٩١) ص١٨٤ـ١٨٥ ، السيراف : سلسلة التواريخ (تحقيق Lengles/باريس ١٨١١) ص ١٥ـ٢١ ، ١٣٦ـ١٣٧ ، المسعودى : مروج ج١ ص٢٣٢ ، ج٣ ، ص٦ ، حدود العالم : مؤلف مجهول (تحقيق مينورسكي) ص ٥٨ ، المروزى : شرف الزمان : في الصين والترك والهند (لندن ١٩٤٢) ص١٠ ، ياقوت الحموي : معجم ج٤ ص٢١٦ ،

Chan-Ju-Kua: Chinese and Arab Trade in the 12th and 13th centuries.

(P.St-Petersburg 1914) p.15, 132-35

Adler, E.N: The Jewish travellers (London 1930) p.57,

Boulnois: The Silk Road (1963) p.191

(٢١) البيرونى : الجماهير في معرفة الجواهر (حيدر اباد) ص ٢٦١

(٢٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك [ط ـ اوربية] م١/٣١٢٣ ، ٣١٢٧ ، ٣١٢٧ م٢/ ٦٨١ـ٦٨٢ ، د. صالح احمد العلي : «خطط البصرة» مجلة (سومر ١٩٥٢) ص٢٩٥ ، التنظيمات الاجتماعية ص٢٤٨

(٢٣) د. صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة [بغداد/ ١٩٥٣] ص٢٤٤

(٢٤) المسعودى : مروج ج١ ص٢٠٥ـ٢٠٦ ، ٣٣٣

(٢٥) المسعودى : التنبيه والاشراف (ليدن ١٨٩٣) ص٣٩٤

(٢٦) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان مخطوط المتحف البريطاني ، لندن رقم OR.4619) ورقة ١٦٥ (ب)

(٢٧) احسن التقاسيم ص ١٢٨

(٢٨) ن.م

(٢٩) ابن الفقيه الهمداني : البلدان ص ٢٥٣

(٣٠) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ج٢ ص١٨٩

(٣١) الصولي : اخبار الراحين والمتقى (القاهرة) ص ٢٨٨

(٣٢) ابن بطوطة : رحلة ج١ ص١٣٦ـ١٣٧

(٣٣) حدود العالم (ت. مينورسكى)

Minorsiky: Hudud al-Alam pp.138-39

(٣٤) الجاحظ : التبصر بالتجارة [اعتناء حسنى عبدالوهاب/١٩٣٥] ص٣٢ ، ٣٤ ، المقدسي : ص١٢٨، ١٤٥

(٣٥) الجاحظ : المصدر السابق ، المقدسي ص٣٢٤ ، ٣٩٦ ، ٤٤٢ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٧٠

Lopez, R.S. and Raymond: Medieval trade in the Mediteranean World (London 1955)

Thempson, J.W: Economic and Social history of the Middle Ages (1928) pp.353

B. LEWIS: The Fatimids and the route to India, in RFSE univ. Istanbul XI (1946-50) p.50-54

(٣٦) ابن حوقل : صورة ص٣٣ ، ناصر خسرو ص ١٤٤ ، ابن بطوطة ج١ ص١٧٧ ، نعمان بن محمد : معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر [د. محمد حمدالله] باكستان/١٩٧٣ ص٨٨ـ٨٩

(٣٧) سفرنامة ص ١٤٤

(٣٨) سلسلة التواريخ ص ١٣٩

(٣٩) احمد بن يوسف التيفاشي : اظهار الانكار في جواهر الاحجار [مخطوط ، المتحف البريطاني رقم Add 21/953] ورقة ٦ (أ) ، ابو عبيد البكري : الممالك والمسالك (ط١ / ١٩٧٧) ص٣٨ـ٤٠

(٤٠) ن.م. ورقة ٥٦ (أ)

(٤١) ابو الفداء : تقويم البلدان ص٩٨ـ٩٩

(٤٢) ن.م.

(٤٣) البلدان ص ١١٤ ، ابوعبيد البكري : الممالك والمسالك ص ٣٨ـ٣٩

(٤٤) رحلة ابن بطوطة ج١ ص١٧٧

(٤٥) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني [١٩٦١] ج٣ ص٥٤ ج١٦ ص٢٠٤ ، ابن بطوطة ج١ ص١٧٧

(٤٦) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ج٦ ص١٢٨ [١٩٣٥]

(٤٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٠١

(٤٨) ن.م ، نعمان بن محمد : معدن الجواهر ص٨٨ـ٨٩

(٤٩) البكرى : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضيع [ت. مصطفى السقا ، ١٩٤٩] ج٢ ص٥٣٩
(٥٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٥٠٩ ، ابو الفداء : تقويم ص٩٩ ، انظر ايضا ابا عبيد البكرى : الممالك والمسالك (ت.د. عبدالله الغنيم ط١/ ١٩٧٧] ص٣٨-٤٠
(٥١) تاريخ اليعقوبي (ليدن ١٨٨٣) ص٥٩٠
(٥٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٤ ، الصابي : الوزراء ص ٢٨٦ .
(٥٣) المقدسي ص ١٣٤ ، ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء (ص٣٩٢) ان عمر بن يحي العلوى فرض ٣٢٧هـ على كل جمل للحجاج ضريبة خمسة دنانير معلقا على ذلك انها اول سنة يؤخذ فيها المكس على الحجاج (اى سنة ٣٢٧هـ)
(٥٤) الصابي : الوزراء ص ٢٨٦
(٥٥) ابن حوقل : صورة قسم ١ ص ٢٣٩
(٥٦) سفرنامة ص ١٤٤
(٥٧) صورة الارض : ق١ ص٣٣
(٥٨) احسن التقاسيم ص ١٣٤
(٥٩) المسالك ص ٢٣
(٦٠) صورة الارض ق ١ ص٣٣
(٦١) احسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥
(٦٢) ن.م
(٦٣) ابن المجاور ، يوسف بن يعقوب : تاريخ المستبصر [تحقيق Lofgren] (١٩٥١-١٩٥٤) ص١٤٠-١٤١
(٦٤) المقدسي : ص ١٠٤-١٠٥ ، ابن مجاور ص١٤٠-١٤١
(٦٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير (بيروت ١٩٥٩) ص٤٥، ٤٦
(٦٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان [مخطوط] ورقة ١٦٥ (ب)
(٦٧) انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ [القاهرة] ج٨ ص٢٣٣ ، انظر ج٩ ص٢١، ٧٧ ، ايضا انظر عن حوادث سنة ٣٩٢هـ ابن الجوزي : المنتظم [حيدر اباد] ج٧ ص٢١٩